اصول الفلسفة

مقدمة

موضوع الفلسفة — كانت الفلسفة فى العصور القديمة مجموع العلوم المعروفة وقتئذٍ ؛ وكان الفيلسوف يحيط بعلوم وقته وفنونه من لغات وطبيعيات وآلهيات وهندسة وفلك وموسيقى وشرائع وطب وغيرها

وكان الأمر كذلك أو ما يقرب فى القرون الوسطى اذ كان فى الطاقة البشرية الالمام بجملة تلك العلوم والفنون

أما وقد اتسعت المعارف البشرية اتساعها المعهود وتشعبت العلوم العصرية فقد أصبح فى غير مقدور الانسان أن يجمع معارف عصرنا هذا ؛ ولو حاول أن يُلَمَّ ببعضها الماماً للزمه أن يعيش اضعاف عمره . لذلك استقلّت الفلسفة بتقرير المسائل العامة التى تصل تلك العلوم بعضها ببعض مثل البحث فى أصول الكائنات وطبيعتها والخواص الذاتية لها ومكانها من الوجود وما تصير اليه غايتها ما عدا أحوال الأجسام وخواصها العرضية فان البحث فيها من شؤون العلوم الخاصة بها لأن العلوم الوضعية كلها تشتغل بكل ما يعرض للموجودات من الظواهر والخواص والاعراض دون حقائق هذه الموجودات وأصل وجودها فان ذلك من خصائص الفلسفة

تعريف الفلسفة — مما قلناه فى موضوع الفلسفة يمكن تعريفها بأنها علم المبادىء والعلل — علم البحث عن العموميات العالية للكائنات — علم البحث فى النفس والعالم وخالق الموجودات من طريق النظر الفكرى. اذاً فالفلسفة علم له صفة خاصة. وهى البحث عن العلل والمبادىء لأن معرفة الأشياء على طريقتين: معرفة **بسيطة عامة** كما يفهمها كل انسان، ومعرفة **مع الاستقصاء** بواسطة المباحث العقلية التى ترتقى بالباحث الى المبادىء أو الأصول العالية للأشياء وعللها الأصلية

فالفلسفة علم عقلى أساسه النظر والفكر وبهما امتازت عن علوم الدين القائمة على ما وصل الينا من تبليغات الرسل عليهم السلام ولقد أعجب أهلَ الفلسفة من المسلمين على قلة عددهم ما نُقل اليهم فى القرن الثالث عن ارسطو وافلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان فزجُّوا بأنفسهم فى المجادلات الدينية التى أثارها من ادّعى الإسلام من شيع الفرس والأعاجم وحملهم الجدل ولدد العناد على الخلط بين العقائد الدينية وما لا ينطبق على أصول النظر فانبرى لهم من بين الجماعة من دحض لهم بعض قضاياهم وخاف الخلفاء شر الفتن فأمسكوا عليهم حريتهم وسقطوا فى هاوية كانت خاتمة أمرهم فى الاسلام ولولا ذلك ما وقف أمام العلم والصناعة متمنت ولا وقفت الحضارة الاسلامية عند حد محدود

ظهر دين الاسلام وقد بلغت عقول الانام مبلغ الفهم والاعتبار فكان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر فى اسرار هذا الخلق العظيم من حيوان ونبات وجماد ورفع القرآن من شأن العقل فصرح له باطلاق العنان

للفكر ما شاءت قوته عظة واستدلالاً[١] تخلط الفلسفة بالدين يضر به لأنه يعرض عقائده ؛ وهى عواطف قدسيه تتأثر بها النفس كما تتأثر ببهجة الجمال ؛ الى مناقشات العقل ومناقضاته

ويضر بالفلسفة كذلك لأنه يجعل للبحث والنظر فى حقائق الموجودات غاية واحدة هى تأييد عقائد الدين فتأخذ الفلسفة شكلاً دينياً لا يتناسب مع حرية البحث والنقد

ولما كانت غاية الدين والفلسفة اسعاد الانسان كانت العناية بهما من ضرورات الحياة ولا تنافى بينهما كما يظن بعضهم فان الدين طريقه القلب والعواطف ؛ والفلسفة طريقها العلم والنظر[٢]

على ان الدين من عند الله تعالى وما كان من عند الله فكل ما فى الوجود يؤيده وتظهر آيات القدرة الآلهية بأجلى مظاهرها فيه . هذا هو العلم وقد بلغ شأوه المعلوم وهذه الفلسفة ؛ وقد تناولت مباحثها أسرار الأكوان والعوالم ؛ لم نرها مسّت عقيدة ولا أصلاً من أصول العبادات . وما قولك فى دين يقول أئمته بترجيح العقل على ظاهر الشرع عند التعارض إلاّ أنه دين الحق دين الفطرة — (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق . . . . .)

وكذلك رأى علماء الفلسفة العصرية ضرورة المباعدة بينها وبين الأمور الدينيّة الصرفة وحذفوا كتاب اللاهوت[٣] من علوم الفلسفة

---

(١) ملخص آراء العلامة ابن خلدون والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

(٢) للشيخ مصطفى عبد الرازق باختصار

(٣) La théologia

وجعلوه علماً خاصاً بأهل الدين والمباحث اللاهوتية حيث انها قائمة على معرفة الحقيقة من طريق التعاليم والإلهام . أمّا قولنا ان الفلسفة هى علم البحث فى النفس والعالم وخالق الموجودات فلأنها تبحث عن العلل الأولى للكائنات وعن النفس البشرية لأنها موضوع البحث وآلة الوصول الى معرفة كل شيء

فائدة الفلسفة — تتعلق فائدتها بالتأثير الذى تحدثه فى الانسان وبالمنافع التى تعود منها على العلوم الأخرى

(١) فبالفلسفة يعرف الانسان نفسه ويقوى ملكاته ويعودها النظر والفكر والحكم على الأشياء — فهى تنير بصيرته فيدرك أسرار طبيعته وأصل خلقته وعلاقته بما يحيط به من الكائنات

(٢) والفلسفة علم متمم للعلوم الأخرى ومرشد لها لأن كل علم يرتكز على بعض تعاريف أساسية ومبادئ أو قواعد يستنبطها العقل منه ولكن بحالة عامة سطحية . والفلسفة هى التى تُجلّى أصولها وصفاتها وقوتها وطريقة استعمالها. كذلك لكل علم أسلوب يجب اتباعه فى مباحثه وإلاّ ضلّ العقل فيها . والفلسفة هى التى تبيّن لكل علم الطريقة المثلى التى تغيره وهى ما يعرف بالقضايا المنطقية فى علم المنطق

أقسام الفلسفة — الحقيقة ان الفلسفة علم ما بعد الطبيعة أما العلوم المعروف بالتواتر التصاقها بالفلسفة فتشترك مع علم ما بعد الطبيعة ولا تفارقه وهى :

(١) علم النفس — هو علم الأمور المكونة للحياة الروحية للانسان.

هذه الأمور مصدرها « النفس » وهى ما نسميها « أنيتنا » ولكن لا تعرف طبيعتها الا من علم ما بعد الطبيعة

(٢) علم المنطق — هو علم الأصول التى يتحتم على القوة المدركة أن تجرى عليها للوصول الى المعرفة الحقيقية . ولكن علم ما بعد الطبيعة يبحث فى هل الفكر قادر تماماً على الوصول للحقيقة وما هو المعنى الذى يصوره للمعرفة بوجه عام

(٣) علم الأدب — هو علم تقرير قواعد الارادة وتحديد الغاية التى يجب علينا أن نتخيَّرها دون غيرها وهو يحتاج لعلم ما بعد الطبيعة فى حل نظرية قيمة هذا العالم

فهذه العلوم المختلفة يرتبط بعضها ببعض إرتباطاً تاماً حتى يكاد يكون موضوعها واحداً فان موضوعها الذهن لا غير. فالمنطق هو الذهن باحثاً عن الطريق الواجب عليه أن يسلكها للوصول الى الحقيقة . والأدب هو الذهن باحثاً عن أجمل صورة تتحلى بها حياته وهو الخير . وعلم النفس هو الذهن باحثاً عن نفسه لمعرفة ماهيته وكيفية أعماله وعلم ما بعد الطبيعة هو الذهن مشتغلاً بأهم مطالبه وهى المعرفة والحدوث وحقيقة نفسه ومكانه من الوجود وغايته فيه أى المطلق